الخطاب النبوي و فاعلية التكرار البياني

د.محمد الأمين خلادي
أستاذ اللغة العربية والنقد الأدبي
جامعة أدرار ـ الجزائر

المقدمة

خص الله تعالى نبيه محمدا- صلى الله عليه وسلم- ببيان لا ينطق عن الهوى، فهو النبي الذي أوتي جوامع الكلم وخير من نطق الضاد، فتميز لسانه بخصائص العربية الفصحى المثلى كالمجاز والإيجاز والتصوير ودقة التعبير المتناهية في الوضوح والإبلاغ وقوة التأثير.

ومعادلة المباني والمعاني بينة حقيقتها في الحديث النبوي الشريف فلا يلفي المتلقي إلا ما من شأنه الإفهام وتقريب الرسالة وإحداث الأثر والسبل البيانية النبوية إلى ذلك الغاية عديدة كالتكرار ذي الصيغة الإلحاحية، حيث لا مدعاة إلى التكرار من أجل التكرار في ذاته، وإنما لإصدار رسالة توكيدية إشعارية بالخبر أو الأمر أو النداء، وجاء الشيخ السيوطي بتعريف التكرير قوله « هو أبلغ من التأكيد وهو من محاسن الفصاحة خلافا لبعض من غلط ، وله فوائد منها التقرير ، وقد قيل الكلام إذا تكرر تقرر »[١] وهذه مسارات بلاغية تخذها النبي صلى الله عليه وسلم في تربيته وتعليمه البيانيين لكل العالمين كأسلوب التكرار ومما يستدل به على ذلك « عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه و سلم : أوصني، قال: لا تغضب، فردد مراراً قال: لا تغضب» [٢]، وهذا بيان للدلالة على فائدة التكرار في الإقناع والتأكيد وغلق باب كل شيء سوى هذه الوصية أي عدم الغضب، لأن النبي معلم مرب وفقيه بشخصية السائل المُستوصي فردد هذا النهي دون غيره فهو الدواء الكفيل بحال الموصى.

العرض

إيجاز البيان النبوي و تكراره

ومما يجب الانتباه إليه –ههنا- إيجاز البيان النبوي رغم أن التركيب اللغوي من التكرار، وهذا عين المعجزة المحمدية المستقاة من القرآن العظيم، ففي الإيجاز التكرار وفي التكرار الإيجاز ولا يتهيأ هذا لكل من حاول ركوب البيان وبحره لأن « ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسنان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي لكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر

---

[١]- عبد الرحمان جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ج٢ ، ص:٦٦ ،٦٧ .

[٢]- محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف النووي، الأربعون النورية في الأحاديث الصحيحة النبوية الدار السلفية، الجزائر، ص ٢٤، ٢٥.

من خواطره صلى الله عليه وسلم»[3] وخاصية التكرار في وصية النبي (لا تغضب) مراراً لم تلحق خللاً ببيانية النصح والتعليم لأنها معمورة بروح قرآنية وموسومة بجمالية التفصيل المكثف المقتصد، والغاية إراحة المتلقي من عناء كان يكابده لا محالة في جوانية نفسه، فكاشف الرسول الطيب عن ذلك بإزالة الهم من خلال الدعوة إلى ترك الغضب، ولا شك أن طالب الوصية نبع عنه ملمح الغضب والقلق –أصالة- فكانت هذه الوصية أحرى بغيرها من وصايا عديدة تشفي حيرته وترشده بعد تيه وتؤمنه بعد خوف.

فالخير كله في إبلاغية التكرار مادام موصولاً بتلبية حاجة المتلقي فكرياً أو نفسياً أو جسمياً... وتلك سجايا بيانية أصلها النبي في تعليم أصحابه لما فتح أبواب الحوار والمساءلة والمناقشة والبحث مع رحابة صدر ونور بصيرة تسع كل العالمين.

التواتر في الحديث الشريف

وعلم مصطلح الحديث حقل معرفي بياني اختص بوضع سمات اصطلاحية لأنواع الحديث الشريف كالحديث الصحيح والحسن وغيرهما؛ ومما علقت به خصيصة التكرار الحديث الصحيح فسماه أهل ذلك العلم المتواتر و «هم الحديث الصحيح الذي يرويه جمع يحيل العقل والعادة تواطئهم على الكذب، عن جمع مثلهم حتى يصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام،أو ما روي من طرق كثيرة تحيل العادة تواطؤ رواتها على الكذب...

وينقسم المتواتر إلى لفظي ومعنوي:

أ- المتواتر اللفظي: أول ما يبدو من معناه أن يتفق رواته على كل لفظ من ألفاظه عن روايته؛ بحيث لا يحصل منهم اختلاف بتغيير لفظ بمرادفه، ولا تقديم بعض الألفاظ على بعث، بيد أن هنا جد عسير...ولذلك توسّع العلماء في المتواتر اللفظي بما يجعله شاملاً لما اتفقت فيه الروايات على كل معانيه وإن اختلفت بعض ألفاظه... كأن يقولوا فتح فلان مدينة كذا أو فتح فلان بلدة كذا، مما يحدد المعنى المقصود تمام التحديد.

ب-المتواتر المعنوي: هو ما تختلف ألفاظ الرواة فيه ولكنها تشتمل كلها على قدر مشترك يكون هو المتواتر، ويكتفي فيه بأداء المعنى ولو اختلفت رواياته عن الجمع الذي يحيل العقل والعادة تواطؤهم على الكذب، وهو كثيراً جداً ليس في وسع أحد إنكاره مثاله: أحاديث رفع اليدين في الدعاء، فقد روى عنه عليه الصلاة والسلام نحو مائة حديث فيه رفع يديه في الدعاء وقد جمعها السّيوطي في جزء لكنها في

[3]- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتب رحاب، الجزائر، ص٢٧٩.

قضايا مختلفة. فكل قضية منها لم تتواتر، والقدر المشترك فيها وهو الرفع عند الدعاء تواتر باعتبار المجموع...». ٤

فحقيقة التكرار في الحديث المتواتر واحدة من تجليات السّمو البياني في كلام النبي صلى الله عليه وسلم بتعدد الرواة ومصادر الرواية، وربما كان سبب هذه الصفة دعوة النبي إلى عموم الناس في الزمان والمكان وتنوع المتلقين وكثرتهم من الصحب الأجلاء رضي الله عنهم ومن أخذ عنهم؛ فلهذا وقع التواتر بطرق مختلفة ووحدة المصدر النبوي دون تواطؤ في الكذب.

والتواتر نوعان لفظي ومعنوي؛ إذ الأول تكرار لفظ يختلف من رَاوٍ إلى آخر بتلون الصّيغ والمعجم والتقديم والتأخير والترادف...والمعنى الأصلي واحد، وقد لا يختلف جمع الرّواة في الصياغة أصلاً.

فالتكرار بهذه الشاكلة يكون قياساً بطرق الرّواة وصناعة التركيب بصيغٍ مخصوصة ومعانٍ فرعية تتنوع من راوٍ إلى آخر، فالتكرار ناشئ عن تنوع البيانات لموضوع واحد.

وأما الثاني فتكرار معنوي إذ العمدة على اجتماع الطرق في إيراد المعنى العام الواحد بقدر مشترك متواتر في حين إن ثمة اختلاف في الألفاظ واختلاف في كثير من المعاني الفرعية التي لم تتواتر.

والتكرار في مناهج المحدثين مرتبط بجهتين هما:

- تكرار الحديث الواحد بروايات متعددات؛ وقد يتكرر في أبواب عدة ضمن مصنف واحد أومصنفات عديدة لمؤلف واحد.

- وتكرار خاص بتكرار الألفاظ والعبارات التي يكررها الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة.

والتكرار غائي ليس يخلو من الفوائد حيث إن تكرار الحديث في مواضع متفرقات لعدة مسائل فقهية وأحكام شتى وتناوع العرض بين الطول والقصر وتلاون الروايات...

كما أن صياغة الحديث الشريف في الألفاظ والعبارات تبع للسياق وحال الخطاب، فقد يستدعي ذلك التكرار ومن فوائده العدول عن المغايرة اللفظية إلى المغايرة المعنوية كما في حديث النيّة قوله صلى الله عليه وسلم: «...فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم» ٥.

---

[٤] - د.عبد الكريم الرديني، مباحث في تاريخ الحديث ومصطلحه، شركة الشهاب، الجزائر، ص٨٤، ٨٥، ٨٦.

[٥] - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي، صحيح البخاري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط: ١٤٠١ هـ-١٩٨١م، ج٤، ص ٢٥٢.

ففي هذا السياق البياني تكرار بليغ حكيم، فكان عدول النبي عن المغايرة اللفظية بين أسلوب الشرط وجزائه إلى المغايرة المعنوية؛ ومنه فالتكرار أدخل في إبلاغية التعبير وأمكن من النفس وأرسخ في الذهن، ذلك لأن معنى التكرارة: من كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصداً فهجرته إلى الله ورسوله ثواباً وأجراً فالعبرة بالثواب جزاء وهو على أساس النية في الشرط.

ومن فحوى التكرار النبوي كذلك إشاعة الطمأنينة القلبية والإراحة النفسية في المتقبل، وكان التكرار راقياً يعلو عن قول قائل-مثلا-: فهجرته إليهما... !

ولو اعتمد الدارس مدونة الخطاب النبوي في كتاب الإمام البخاري وصحيحه في نسخته التي تضم أربعة مجلدات وثمانية أجزاء ٦ لتيقن من مسرد الأبواب والموضوعات التي تحصر المادة البيانية المحمدية وما فيها من شواهد عديدة كثيرة من أضرب التكرار في الموضوع الواحد بالمباني والمعاني وشتى الطرق والروايات والأسانيد، وعشرات المصنفات التي نظمت مسارد للحديث الشريف كثيرة٧.

كما أن المضطلع بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم يلفي تنوعا تستمْرئه النفس الذواقة للبيان العربي وبلاغه الذي يسدي النصيحة والحقيقة والهدي إلى الإنسان في كل الحيوات دنيا وأخرى روحاً ومادة، وألوان بيانه صلى الله عليه وسلم مشهودة في الحديث الشريف بداية وكثرة ثم ما سواه من مثل الخطبة والقصص والمواعظ والوصايا والأمثال وجوامع الكلم والموازين والدعاء... !

بيان اللازمة في الحديث الشريف

وفي الحديث الشريف وحده أوجه متعددات من الصناعة الخطابية ودون أن تكون من الألوان الأخرى كالخطبة والقصة... وأشهرها تقرير حكم أو وصف أمر ما أو ترغيب أو ترهيب أو أمر أو نهي أوتحذير.

ولا بأس ببعض التمثيل لتلك الأوجه التي جعلت من التكرار آلية للإبانة عن المعنى ووسيلة جمالية لإيقاع الأثر؛ حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا هشام أخبرنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"٨

---

[٦]- نسخة دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

[٧]- انظر: السيد أحمد الهاشمي، مختار الأحاديث النبوية والحكم المحمدية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١: ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، (وهو مجموع مرتب بالأبجدية تبرز فيه اللوازم التكرارية خاصة في رؤوس النصوص النبوية كالمعجم).

[٨]- البخاري، الصحيح، مج ط، ج٧، ص١٠٤.

فهذا الحديث يحمل تكراراً لجملة فعل الشرط ثابتة وأما جملة جوابه فمتحولة، وهذا صنيع بياني يؤكد تنوع أبواب الإيمان وجهات الخيرات استباقا إليها، وفيها سعة للمؤمن حتى يحصل على الرضا ويفوز بخير مآل.

ثم إن الأعجب من هذا النسيج البياني أن هذه اللازمة النبوية لا تتكرر في حديث واحد بل إنها تعم مجموعة من الأحاديث بروايات وطرق متعددات، وكذا بعض الاختلاف في جمل جواب الشرط استيساعاً للمعاني حسب سياقات ومقامات عديدة[9]؛ فإن كان ذلك الوجه تكراراً فإنه يتخذ مساحة بيانية مكبرة ومتنوعة أخرى يمكن أن يطلق عليها تكرار التكرار.

ومعنى هذا أن موضوعات هذه الأحاديث تقع في أبواب مختلفة وهي:

باب (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره) وموضوع الجار هو الأساس في هذه الرواية والسياق، وفي أخرى ترد بعبارة (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره) من الباب نفسه[10]، وتبقى اللازمة تتردد ثلاثاً في كل حديث مع مخالفة بعض الصياغة مثل: ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قيل وما جائزته يا رسول الله فقال يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.[11]

ثم باب (إكرام الضيف وخدمته إياه)[12] وهذا في أحاديث تزيد عن الثلاثة، ثم باب حفظ اللسان وقد ورد فيه التكرار في حديثين على الأقل[13].

وكل ما هنالك أن اللازمة تتردد مع بعض المغايرة في ذكر الموضوع وحذفه أو تقديمه وتأخيره أوبسطه وقصده مع اختلاف الرواة وتعدد الطرق ووحدة المصدر النبوي، وهي تقليبات الخطاب على جهاته المتعددة، ببروز التكرار اللازمي وهو جملة الشرط في الإيمان ثم جملة جواب الشرط التي تضم الأمر بفعل الخير في خلال معينة كسبب لنيل تلك النتيجة، وبناء الأسلوب الشرطي يزيد التكرار تعميقا للمعنى وتوشية للإيقاع الأصيل في الخطاب النبوي، كما أنه تكرار يصطحب ببيانية الإيجاز والوضوح وإيقاع الفواصل بالعبارات علامة مع تقاسيم المعنى الكلي.

---

[9]- وللإيجاز لا بأس بذكر بعض جمل ضرب الشرط المتنوعة المختلفة رغم أن اللازمة التكرارية واحدة وهي (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر)؛ علماً أن الموضوعات في جمل جواب الشرط تختلف في خصوصيتها في حين تأتلف في العموم لانها من أبواب الخير والإيمان والعمل الصالح ومن ذلك: (...فلا يؤذ جاره)، صحيح البخاري ج٧، ص٧٨.

[10]- صحيح البخاري ج٧، ص٧٩.

[11] نفسه، ص٧٩

[12] نفسه، ص ١٠٣، ١٠٤.

[13] نفسه، ص١٨٤

ولا يمكن حصر المادة الحديثية التي حوت التكرار بشتى أنواعه؛ ولهذا فضرب الأمثلة السابقة نموذج بجيل إلى مئات النصوص في مطلق الحديث الشريف الذي ضم أوجها تكرارية متلونة.

جوامع الكلم بين الإيجاز والتكرار

ويمكن التمثيل الإيجازي لبعض الأنواع الفنية للحديث الشريف ورأسها جوامع الكلم كقوله صلى الله عليه وسلم :«الحلال بين والحرام بين، وبينهما متشابهات...»

«...أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

«خير المال عين ساهرة لعين نائمة».

« ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد»

«... وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف».

« شرف الدنيا الغنى، وشرف الآخرة التقوى، وأنتم من ذكر وأنثى شرفكم غناكم وكرمكم تقواكم، وأحسابكم أخلاقكم، وأنسابكم أعمالكم». «ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها»...

وغير هذه النصوص كثير جمعته مؤلفات عديدة اهتمت بيان النبي صلى الله عليه وسلم.١٤

يراد بهذه الأمثلة التنبيه إلى قطاع بياني خاص بالتكرار في جوامع الكلم إذ يستنتج من توظيفه ما يأتي:

١/ توالج التكرار مع الإيجاز وهذا من دواعي الروعة البيانية ولعله من تجليات تسمية (جوامع الكلم).

٢/ تنوع التكرار بين الحرف مثل (لا) النافية وغيرها وتكرار الكلمة والاسم والفعل مثل (بيّن/ تراه/ من...) وتكرار الجمل والعبارات مثل (أهل المعروف...).

٣/ نظام الثنائيات والتقابل والتناظر وهو بسبب المعاني المثناة بالتجانس والائتلاف أو التشاكل والاختلاف مثل (الحلال بيّن، والحرام بيّن) (عين ساهرة لعين نائمة) وغيرها.

٤/ البيئة الإيقاعية بسبب التكرار والقصر، وهما مظهران بلاغيان يصنعان الجرس النغمي ذي الإيقاع المائز، وتظهر في الفواصل والوقف.

٥/ فاعلية التكرار في تقويمه التضام الخطابي وانسجام النص رغم قصره، ويتضح ذلك بأدوات التوصال البنائي مثل الضمائر وحروف الجر والعطف وأسلوب الشرط والأسماء الموصولة...

٦/ استدعاء التكرار لانسياب العبارة ويسورة المعجم ونضارة اللفظة...وتوظيفه صلى الله عليه وسلم للتكرار في جوامع الكلم اقتدار بياني يخص نبياً كلف بالإبلاغ والدعوة ونصح البشر لا مجرد بليغ فقط «

---

[١٤]- ينظر: عز الدين بليق، منهاج الصالحين، دار الفتح، بيروت، لبنان، ط٢: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ٨٩٨.

وكان يتحدث في ذلك بنعمة الله عليه، فما هو اكتساب ولا تمرين، ولا هو أثر من أثرهما في التفكير والاعتبار، ولا هو غاية من غايات هذين في الصنعة والوضع، إنما هو (إعطاء وإيتاء) فمن لم يعط لم يأخذ، ومن لم يأخذ لم يكن له من ذلك كائن ولم تنفعه منة نافعة» ١٥ .

وذاك من الوحي –لا محالة- يرقى فوق كل جهد، إنه علم البيان الموهوب من ذات الله تعالى ؛ الرحمن الذي علم القرآن والبيان، فالأستاذ الرافعي يقرأ تلك الخلفية النورانية التي تقبع من وراء البيان النبوي لئلا يقع اللبس بين مقدرة النبي الفذة المفردة وفحول البلغاء أهل الإيجاز والإبانة؛ فالإمداد المعجز هو الطاقة الحية الخالدة التي تشع بتوقدها في كلام النبوة المحمدية، ولهذا التكرار والإيجاز النبويين وغيرهما من أشكال البيان خسئ المعارضون من البلغاء وأذعن غيرهم لهذه المقدرة اللغوية؛ ومنه فإن « الاصطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ولكن بالطاقة عليها. وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل، وكم من راسخين يطويهم الصمت، حتى إذا كلفوا أتوا بالعجب العجاب».١٦

وتلك الطاقة لها ظاهر هو البيان المقنِع الحكيم الحاذق الأريب الذي أخذ بألباب العالمين، ويتجلى بالتكرار والإيجاز والتصوير والإلقاء المنغوم والمثل المضروب، لكنه ظاهر يستمد قوته من باطن نوري عنوانه شخصية النبي محمد الموصوف بأعلى الصفات وأسمى المكارم فهو الرؤوف الرحيم الهادي الصادق ... ! وبذلك تعتبر البيانية المحمدية في مئات نصوصها مدونة تكرارية غايتها هدي الناس إلى كل خير في دنياهم وأخراهم، فالتكرار فعالية رسالية تخص النبي أكثر من سواه، وذلك بعد القرآن الذي لا يخلق بكثرة الرد.

أسلوب الوعظ والتحذير وآلة التكرار

ومن أدب النبوة أن يكثر التكرار في الوعظ والتحذير لما يمليه مقام النصيحة، كتلك الحال التي يخشى فيها النبي عن مآل الإنسان وقد رآه على شفا حفرة من النار، إذ قال صلى الله عليه وسلم:

« بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال.

بئس العبد عبد تجبر واعتدى، ونسي الجبار الأعلى.

بئس العبد عبد سها ولها، المقابر والبلي.

بئس العبد عبد عتا وطغى، ونسي المبتدأ والمنتهى.

بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين.

[15]- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٣٤٠.

[16]- محمد الغزالي ، فقه السيرة، دار الدعوة ، الاسكندرية، مصر، ط١: ١٤٠٨ه- ١٩٨٨م، ص٣٤، ٣٥

بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله.

بئس العبد عبد رغب يزله». ١٧

عمرانية التكرار تخضع دوماً للمعنى الأساس ومراعاة المتلقي كهذا النص الذي كالعقد ذي الحلقات المتشابهة المتخالفة في الوقت نفسه، وتلك العمرانية ذات روح تكشف مذمة عبد قد آثر الخسران على التجارة الرابحة في سلوكه وحياته، فيحمل عليه الخطاب حملاً عساه يرتدع ويهتدي، فكأن العذاب به حل والموت أشرف؛ لذلك يتم تفعيل التكرار بتوزيع مخصوص وتشحين معلوم يسمُ الرسالة الواعظة ههنا بحر من الحرارة والحسم في أمر خطير ذي بال تتطاير في فضائه أصوات يرتج لها كيان السامع وتتوالى فيه مشاهد تحدق بعبد تمادى في المعاصي فآل به مصيره الدنيوي إلى هذا التوصيف النبوي القاتم بألوان سوداء، ويمكن رسم العمرانية التكرارية فيما يأتي من الخصائص:

١/ توزيع تكراري عمودي بتكرار اللازمة (بئس العبد عبد)، وفيها ردع وتصوير هول حل بهذا المخلوق جعله مذموماً بائساً، إذ إن تكرار أسلوب الذم علامة على ثبوتية الخسران والضياع وكذا إصرار صاحبها على الضلالة؛ فكل مقطع من المقاطع السبعة يبدأ بتلك اللازمة .

واللازمة فيها بيان الذم (بئس العبد) ثم ينسل عنها لفظ (عبد) وهو بدل من المبدل منه يكون لوناً من ألوان التكرار الذي يكون انسجاماً في عضدية المقاطع عمودياً ثم أفقياً.

٢/ توزيع تكراري أفقي يأتي بعد كل الأبدال بلفظ (عبد) وفيه تفصيل للبئسوية التي تسيم هذا العبد: (عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال) وكأن في التفصيل علة لحكم الذم (بئس العبد)، ثم إن التكرار الأفقي يشمل آليات بيانية تعكس انتشار التكرار في النص كله زيادة عن اللازمة الصريحة؛ وذلك مثل التجانس في (تخيل واختال) والترادف في (الكبير المتعال)، وهذا من شأنه توطيد البنية في المقطع وإحداث الانسجام، كما حروف العطف وغيرها.

ثم هندسة ما بين شقيْ المقطع إذ تفصِلُ بينهما إيقاعية الفاصلة السجعية أي بين (اختال/ المتعال)، وهو فحل السجع النغمي الذي يترك أثراً في السامع فيربط منطقياً بين فعل الاختيال وقد انهار أمام قوة الله المتعال.

٣/ وقع كل تكرارة عمودية بتجدد تفصيل المشاهد اليائسة التي يكرع فيها ذاك العبد اللئيم الفخور بزهوه وخيلائه التي أنسته الاعتبار بأعْلوية رب الأرباب وحتمية الفناء، لذلك يرد فعل (نسي) في أربعة مقاطع متواترات ليتضح المشهد المخزي المفزع ذلك لأن هذا العبد أوقع نفسه في مهلكة النسيان فأنساه الله

[17]- نقلاً عن: عز الدين بليق، منهاج الصالحين، ٨٣٨.

نفسه؛ ومن ثمة تتم فائدة التقاطع والتكرير في الأفق والعمود لتنسج شبكة النَّضْد والتضام فتُسلم المتلقي إلى الفحوى من الخطاب.

٤/ والمتأمل في فسيفساء المقاطع يجد آليات عديدة صنعت بتكرارها وتناغمها المعنى الكلي وهو الاستعبار بهذه العظة النبوية، ومن الآليات حروف العطف (الواو) وإيقاع السجع والفواصل (ى/ ا/ الهاء) والمرادفات المعنوية (تجبر واعتدى/ الجبار الأعلى..) والطباق (المبتدأ، المنتهى/ الدنيا، الدين) والجناس (سها/ لها)...

وما من هذه الآليات إلا تُعْرضُ بآلة كبرى تؤطرها هي التكرار البياني الذي يحيا بالرصّ الوظيفي، فينقش الدلالة في عقل المتلقي المتعظ، وإدراك البلاغة النبوية يقوى لما تجتمع الخصائص المتنوعة في خطاب واحد، كأن تجتمع خصيصتا التكرار والقصد معاً، كهذا النموذج الذي حاز استشارة المتلقي وجل عن كل عيب، فاستعمل النبي "المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، ... ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيّد بالتأييد ويُسّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة...".[١٨]

فكلام الجاحظ وإن أراد بالمبسوط والمقصور صفتين بلاغيتين يتسم بهما مطلق البيان النبوي مع اختلاف موضعيهما منه، فإنهما صفتان قد تجتمعان في موضع واحد وفيه تلتئمان معاً؛ كهذا النص الذي اختزلت فيه المباني من جهة الإيجاز وقصر العبارات وإلماعها المكثف وهذا في مستوى التكرار الأفقي الذي بسّطت فيه المعاني الفرعية المفصلة، في حين تمدّدت المسافة البيانية من جهة التكرار الخاص باللازمة العمودية في بدايات المقاطع، وهي تُلحّ على المعنى العام، وهو فكرة الحديث الواحدة.

وهكذا فاستيعاب القارئ أسلوبين مختلفين في إلقاء البيان الواحد أكبر علامة على فذاذة هذا البيان كاجتماع المبسوط والمقصور سيان، والنبي أقدر على هذا ما دام خطابه موجها لكل المتلقين وبشتى مداركهم، فهو أقدر أيضا على مُوالجة التكرار والإيجاز في مقام موحد « ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد».[١٩]

فمُناوعة النظام الأسلوبي تتساوق والنظام النفسي للإنشاء، وهو يتلقى المعلومة، لأن روح التجدد والتنوع تغري المتلقي وتحمله على مقاربة الرسالة وإعمال المنطق في المقارنة بين أسلوب وآخر وهو يبحث

---

[١٨]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص١٠، ١١

[١٩]- الزمخشري، الكشاف، ج١، ص١٠.

عن سر التنوع، ومن خلال ذلك ينفذ إلى فحوى المتردد والمقتصد « وهذا يعني أن الرسول كان يدرك أن الأقوال والأفعال التي كان يأتي بها كان يقدرها بحسب الفائدة التي تدرها على المخاطب» ٢٠

الوصية وفعل التكرار

والوصية في الخطاب النبوي واحدة من الأشكال البيانية التي تحضر فيها التكرارات المعنوية واللفظية، لأنها نظام لغوي جوهره الإلحاح والتأكيد والتشديد في الإبلاغ وتوثيق الكلام كقوله صلى الله عليه وسلم: « عن ابن عباس رضي الله عنها، قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: (يا غلام إني أعلمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفّت الصحف». ٢١

فالتشكيل البياني قائم على دعائم التكرار التي تُفصّل تلك الكلمات، حيث أراد النبي تعليم هذا الغلام المفرد الذي تلقى الخطاب أولاً ليعم كل الناس من بعده، وابتغى من التكرار أسلوباً تعليمياً لأنه موصول بالحفظ والذاكرة كمستودع لاستقطاب الكلمات، وقد شُكلت في أزواج مثنّاة تُيسّر الفهم والحفظ للمعلومة النبوية وتحدث الإيقاع المثمر.

ثم إن المعاني الواردة في هذه الوصية مشتقة من حركة التكرار نفسها، وهي الحفظ والسؤال والاستعانة والنفع والضرر وكلّها موسومة بالمعاودة والدّيمومة زمنياً وهي تملك على المُوصى حياته كلها، إذ إنه ينال رضى الله مادام يحفظ أوامره ومراقبته فيكون محفوظاً دوماً، وهو محظوظ بحظ وافر وعظيم إذا داوم على سؤال الله وحده، ونِعِمّا المسؤول فهو المُعطي الوهّاب الرّزّاق، كما أنه المنصور إذا بات مستعيناً بالله طالباً العون والقوة منه، فلهذه الحقائق تكررت بعض المفردات تكراراً مقتدراً لا يزيد ولا ينقص عن القدر المُساوِق للوصية ذاتها.

وكذا النفع والضر مهما حاوله المجتمعون في الزمان والمكان لا يقع إلا بمكتوب منه تعالى ومقدور، وحقا فقد تكون فعالية المحاولة من الناس نفعاً أو ضراً مستديمة تتردد بأزمنة متكررة قياساً بفعل المضارعة(ينفعوك/ يضروك) ومنه فالصوت التكراري-ههنا- يؤدي وظيفة دلالية خاصة بأثر الوصية في الموصى في كل زمان ومكان « ومن الوسائل التعليمية توجيه الخطاب إلى المتعلم، وفي الحديث

[٢٠]- آمنة بلعلي، الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث (مقال) مجلة التراث العربي، دمشق، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ع٨٩، ص٢٧.

[٢١]- عز الدين بليق، منهاج الصالحين، ص ٨٤٥.

النبوي نرى قدراً موفوراً منها يستخدم هذا الأسلوب. فَعَلى الرغم من أن الخطاب يكون موجّها إلى الناس كافة لكنه يستخدم أسلوب الخطاب للمفرد»٢٢ كهذه الوصية وفيها من تمازج الإيجاز بالتكرار ما يُحيل إلى أن الخطاب النبوي يستعلي بخدمة المعنى على اختيار الإيجاز أو التكرار؛ فإيجازه تكرار وتكراره إيجاز.

القصص النبوي وتكراره الوظيفي

وما أكثر القصص النبوي وهو لون بياني يكثر فيه الوعظ والتصوير والتقرير والتشويق وإعمال المخيال باستحضار المشاهد، وكان له أثر واضح لما يجد فيه السامع من متعة فنية وفائدة تعود على العقل بالحكمة وعلى القلب بالرقة والخشية ولما في ذلك من ارتحال عن عالم الحقيقة المعيش إلى عالم التخيل باستحضار وقائع حقيقية قد تمّت في الزمن الغابر فيعرضها النبي صلى الله عليه وسلم لتلك الغايات ولغاية التأديب والاقتداء والقياس بإسقاط سابق على لاحق.

ولطول المتون القصصية النبوية يكتفي بنموذج الرجل الإسرائيلي الذي سأل بعض بني إسرائيل أن يسلّفه ألف دينار فطلب منه إحضار الشهود؛ وهي حقيقية في الزمن الأول تدل على الصدق والوفاء في الائتمان على مال الدين وقضائه رغم وجود المصاعب، كهذا الرجل الذي حيل بينه وبين الوصول إلى الدائن كي يرد إليه ماله، لكنه رجل تقي كان قد أشهد الله مراراً على السلف، وهو نعم الشاهد ونعم الكفيل فائتمنه الدائن على ذلك، وتمضي فترة ويتعذر السبيل إلى القضاء فيفكر المدين في وسيلة ذكية من خلال مراكب البحر فيؤدي ذلك الدين بقدرة الله تعالى.

وفي ثنايا القصة تتواتر التكرارة الأساس والتي هي محور القصة ومدار العبرة وهي تكرار لازمة (كفى بالله شهيداً / كفى بالله وكيلاً) فتلك الكفاية هي التي قامت مقام الشهادة والوكالة لأنها نبعت من قلب مَدين يصدق دائنه ويخشى ربه، وإيراد القصة على هذه الشاكلة في أحاديث نبوية كثيرة يعد تكرارا في ذاته ، وهي القصة النبوية التي تُغاير بين أسلوبي الوجز والإسهاب ففيها « إطناب بتكرار بعض العبارات، ولكنه موجز محبوك جيد الوصل والفصل، متماسك النظم رقيق الإشارة، ولا يغنيك وصفه- مهما دق- عن التمرس به، والاستنباط منه، والاستمتاع الطويل بالجلوس إليه». ٢٣

٢٢- أحمد سيد أحمد، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأسلوب حديثه، ص ٦٦.

٢٣- عز الدين علي السيد، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، مصر، ١٩٧٣م، ص٤٦٣، نقلا عن: أحمد سيد أحمد، سيرة النبي، ص ٩٠.

لذلك فالقصة والقصة المثيلة تدعو إلى التأمل والاستمتاع، لأنها تختص بالاستحواذ على مخيلة المتلقي وخاطره فتستهويه وتذهب به مذاهب يطول فيها التأمل والبحث والادِّكار.

خطبة حجة الوداع وأثر التكرير في المرسل إليه

تعد خطبة حجة الوداع للنبي مظهراً تكرارياً رائداً في إبلاغية البيان العربي، إذ إنه تكرار غائي له من جمالية التفصيل والإبانة ما له، كيف لا وهو النبي الذي أوتي البيان وجوامع الكلم وأضرب الخطاب وفنونه، « فاعلم أن نسق البلاغة النبوية إنما هو في أكثر الحد الإنساني من ذلك الإعجاز، يعلو كلام الناس من جهة وينزل عن القرآن من جهتة الأخرى، فلا مطمع لأبلغ الناس فيما وراءه، ولا معجزة عليه فيما دونه» ٢٤.

وهذه الخطبة أظهر نموذج جمع فيه النبي كل ما في رسالته من بلاغ دنيا وأخرى مخاطبا مطلق الناس مشهداً بعضهم على بعض مفصلاً في كبرى الحقائق بين الرب والعباد وفيما بين العباد أنفسهم مبشراً ومنذراً مجلاً ومقرعاً؛ فهي خطبة جامعة مانعة حية خالدة صالحة في كل حين تذكر الناس سعادتهم وهي المنجاة إذا رغبوا في العمل بمقتضاها أمراً ونهياً...

وقد تَخِذَت الهندسة البيانية في هذا النص الشريف بناء بديعياً مفصلياً يحفظ ماء المعاني والقضايا المبثوثة في الحرف والكلمة والعبارة، فثمة مفاصل ثمانية ممهدة باستفتاح ووصية واعظة مختتمة بالسلام؛ وهي أقسام ثلاثة تصنع الخطاب.

ومما زاد البناء بداعة والمضمون سمواً خالداً تغرز خطاب تكراري في أواسط المفاصل، هدفه إثارة الانتباه للتركيز في التلقي ، لأن الأمور ذات جلل و كذا إيقاع وقفات فاصلة تُمَعْلِم خصوصية كل مفصل بموضوع معين، وكأنه علامة على التوقيع النبوي في ترسيخ إعلامات مخصوصة يقرؤها كل من شهد الخطبة أو تلقاها على مدار الزمان وحدود المكان.

و يمكن إيجاز عُنْوانات الأقسام و المفاصل كالآتي:

القسم الأول: مفتتح بالحمدلة والاستغفار والشهادتين والتصريح برأس الخطبة من خلال توصيته عباد الله بالتقوى و الطاعة ثم مفصلة ما بين القسمين بعبارة (أما بعد).

القسم الثاني : و يحتوي ثمانية مفاصل.

المفصل الأول: نداء أول (أيها الناس) مع الإشعار بالسماع لما سيلقى مُحَسِّسا المتلقين بعظمة الموقف زمانا و هو موسم الحج و مكاناً هو البقعة الحرام.

[٢٤]- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتب رحاب، الجزائر، ص٣٤١.

و النداء(أيها الناس) هو رأس موضوع المفصل كما أنه العبارة التي تتردد في الخطبة ابتداءً بتحديث المخاطب في إطلاقية تعم بني البشر جميعاً؛ و هي تكرارة ذكرت ثمان مرات إلحاحا على مقصديتها العميقة و عموم المخاطبين بها و كل ذلك موصول بالزمكانية التي أكدها النبي في المفصل الأول تبيينا يعلم الجمهور يومذاك بحسم اللقاء الذي تحسبه النبي، فقذف بخطابه إيقانا منه بذلك التحسب أي لقاء الله تعالى؛ وهذا المفصل في موضوعه كأنه مستهل يبدأ به المفصل الأول ومقدمة لكل المفاصل.

المفصل الثاني: يفتتح بتكرار النداء (أيها الناس) ويختم بتكرار (ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد)، وهو اختتام يذيل به المفصل في مستويين أولهما بعد تحريم الدماء والأقوال والأعراض في أن يعتدي عليها باطلاً وثانيهما بعد تحريم الربا ودماء الجاهلية ومآثرها الموضوعة...

وذاك الإشهاد ورد مرتين في هذا الفصل لتعلم جسامة هذه الموضوعات الجامعة للأمر والنهي وهي مسائل كبرى فكان التكرار مقصوداً لإعلام السامع والقارئ والمتلقي إعلاماً حقيقاً بالتأمل والحذر والنظر لأنه إشهاد الله تعالى على تبليغ النبي رسالته كاملة في جوامع الأمر والنهي وموانعها.

المفصل الثالث: تبيان حقيقة الشيطان في يأسه من القعود في الصراط المستقيم للناس، لكنه يحتنكهم في الأمور التي يستصغرونها من القول والاعتقاد والعمل، وهذا كله يعد إنباه كل الناس بلازمة (أيها الناس) اقتداء بخطاب القرآن العظيم.

المفصل الرابع: يتوج بتكرار (أيها الناس) وفيه سدادية البيان التي تزيد المعاني عمقا وتجدداً وإيقاعاً يتكرر في السمع وتترك أثرها في العالمين لأنهم المقصودون جميعا وقد وقعوا تحت هذا النداء الذي يقيم عليهم الحجة إذا ما خالفوا الأحكام القرآنية التي وسمت النسيء بالكفر وبينت الأشهر الحرم كأعدل وسم للزمان ثم يذيل المفصل بتكرار الإشهاد كتوقيع يقيني لا رجعة في قراره.

المفصل الخامس: يشرع الخطيب في بسط موضوع يخص موقع النساء في شريعة الإسلام. وهو تشريع رباني عدل حكيم كامل شامل متزن حق، أساسه الإنصاف المتوازن بين الرجال والنساء حيث لا شريعة تثبت قدرتها على هذا الكمال المطلق في مكانة الذكر والأنثى كما لا طاقة لقانون مهما قوي وعدل في أن يحيط بسعادة هذين المخلوقين، وهل للمخلوق حول وقوة في ذلك؟ إنه حول الخالق تعالى وقوته العالم بخلقه فيما دق وعظم، ثم يوصى النبي الناس في أن يتقوا الله في النساء، ثم يسوق التكرار بالإبلاغ والإشهاد تبرؤاً نبوياً من الكتمان وبرهاناً على تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة ونصح الأمة...

المفصل السادس: وما بين التكرارين (أيها الناس) و(ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد) تقرير الأخوة بين المؤمنين وتحريم أخذ مال الآخر إلا بحق، ثم استقلال الخطاب –ههنا- بموضوع القتل وهو الفتنة الكبرى التي كان يخشاها النبي ويتوقعها في مستقبل الأمة والإنسانية؛ لهذا يستدرك ضمن هذا المفصل

إخطار الناس بتبعات هذه المآثم والجرائم إذ ربط ضرب الرقاب بالكفر محملا إياهم بالعود إلى الكتاب والسنة فهما الهداية عينها ويختم بتكرار الإبلاغ والإشهاد.

المفصل السابع: وخصه الخطيب بالعود على البدء، وهو تذكير الناس بأول الخلق وأصل الآدمي من آدم والتراب، وهو إبلاغ مقصود لأن الأصل الكريم ومعقد التفاضل والتفاخر في مكسب التقوى وخوف الله تعالى.

وهذا إنباء في صميم الخطبة لأنه يرتبط بالمفاصل السابقة، إذ إن الناس على هدي من حياتهم في تلك المسائل الكبرى سالفة الذكر ما داموا يخشون الله تعالى، ولا معنى لحياتهم في ذلك –أيضا- إن كانوا عن التقوى زائغين.

والمفصل السابع: يبدأ بتكرار (أيها الناس) ثم يختم بالتكرار : (ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد)، إلا أن نهاية هذا المفصل زادت في تأكيدية التكرار لما أجاب الحاضرون نبيهم بقولهم (نعم) فقال (فليبلغ الشاهد الغائب) فأشهدهم على أنفسهم ومدّد من شأن الرسالة فكانت الخطبة شهادة في ذاتها صالحة لمطلق الزمان والمكان والإنسان.

المفصل الثامن: يختم الخطيب -بعد نداء الناس (أيها الناس) –النص بما يتساوق والختم فذكر موضوع الميراث لأنه عالق بالموت والعقب وهذا ما يختم به المرء وجوده، فكان اختتاما منسجماً والخطبة في مفاصلها وأقسامها، وكأنه تذكير بأفق الآخرة وما يجب التزود به للموت وما بعدها.

ثم تختم الخطبة بالسلام وهو تحية مشحنة بوداع تنبأ به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومما يستفاد من سوق التكرار في هذه الخطبة ازديان بيانها بإبلاغية دلالية تحفظ ذاكرة الرسالة المحمدية التي اختصرها النبي في هذه الخطبة المعلمة الناس بأمور دينهم ودنياهم في اقتضاب مكثف يطوي في ثناياه تضاعيف الحياة قولاً وفعلاً أمراً ونهياً، وخصوصاً تلك التي تعلق بالمخلوقين فيما بينهم حرصاً من النبي على سلامة عقباهم يوم لا راحم إلا الله.

ومن جهة التركيب الأسلوبي والإيقاعية فثمة تجليات بيانية تؤكد مشروعية التكرار ومبتغى الإيصال وإرضاء المتلقي إقناعاً واقتناعا، وذلك بتركيب ردده النبي جمع فيه بين الإنشاء والخبر ضمن هندسة متلونة من شأنها استحضار الجو النفسي والتهيؤ الذهني للمتلقي؛ والنداء إسماع مشهّر يحمل السامع/ المتلقي على التلبية بطريق أو بآخر، أفضله الاستجابة سمعاً وطاعة وأقبحه انتهاء النداء إليه وإن عصا وتكبر وتجاهل، ثم أسلوب الاستفتاح والاستفهام (ألا هل بلغت، اللهم فاشهد) أسلوب كأنه يؤكد النداء ويقر نفاذه إلى المتلقي وما بين الأسلوبين تتقرر الخبرية الحاملة لرسالات أراد النبي إبلاغها إلى الشاهد والغائب سواء.

ومن ثم فالتوزيع الهندسي لتركيب التكرار يصون الرسالة ويوصلها إلى مؤداها الحقيقي وبذلك فإنه حقا النبي الحريص على الناس ومجيرهم من النار...

أما إيقاعية التكرار فإنها تتبوأ مكانة سامقة في شد الوجدان وخلابة السمع، وهي إيقاعية مزدوجة تتمثل في بيئتين جلية وخفية وبينهما ائتلاف واختلاف.

فالبيئة الإيقاعية الجلية والخفية يتم الإيلاف بينهما من جهة أن كلا منهما لا يكون إلا حيث يكون التكرار.

أما ما بينهما من اختلاف فسببه أن الإيقاع الجلي مصحوب بتكرار اللوازم عمودياً في النص؛ وهو إيقاع التكرار في رؤوس المفاصل وأذيالها بعبارات (أيها الناس/ ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد)؛ فكأن كل تكرار لاحق هو رد على تكرار سابق و به يقع النغم الخارجي الذي هو كالفاصلة الإيقاعية والتي بها تَنْماز معاني كل مفصل عن الآخر؛ فعمودية الإيقاع الجلي موصولة بالترتيب المتدرج لمعاني الخطبة وموضوعاتها حتى يغدو السامع / المتلقي في حال التوقع تجاه إيراد التكرار مجرد اكتمال معنى المفصل وحيثياته الدلالية وبهذا فهو تكرار وظيفي يخدم الفكَر و يزين الفقرات بنغم مخصوص يؤثر في الأذن ثم في القلب.

وأما عن الإيقاع الخفي فمنشؤه تكرارات ترد أُفقيا في كل مفصل زيادة عن تكرار اللازمة، فينجرّ نغم جوّاني يتأخر في بروزه بعد الإيقاع الخارجي للازمة المفصلية؛ ذلك لأنه يُحيي نغماً مصاحباً له جراء تكرارات أفقية تمدد نغم اللازمة مثل: (فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا)؛ وهنا تكرار ضمير المتكلم الذي يؤكد ضمير المنادي وهو النبي ثم تكرار اسم الإشارة الذي يفيد التعيين والتدقيق إشعاراً بهول الموقف وجديته، كما الأمر في المفصل الثاني فبعد اللازمة المفصلية تتواتر عبارات قصيرة ذات إيقاعات تشعّ بالروح المتخفية وراء المباني تترك أثراً غائراً في نفسية المتلقي: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا..)؛ وثمة سرد لتواتر ضمائر المخاطب تحدث استجابة لمثير اللازمة في ضميرها المتكلم (أيها الناس)، فالتكرار الضمائري ذو إيقاعية خصيبة تحدث وقعاً في السامع، ناهيك عن الميمات الساكنة التي تترجم انتهاء الإعلام في آذان المتلقين وقلوبهم، وإنّ حُرمة الدماء والأقوال والأعراض شبّهت بحُرمة يوم عرفة وشهر ذي الحجة والبيت الحرام وفي هذا تكرار بالتشبيه يحمل إيقاعاً داخلياً بفعل المقارنة لتحقق المساواة والشبه، كما تجلت النغمية الجوانية في صناعة التركيب المكرّر في غالب عناصره: (يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا)، ومنه فالإيقاع الداخلي يصنع بمؤتلف اللفظ ومختلفه... ومثال هذا شائع في نغمية الخطبة وهي تتجدد من مفصل إلى آخر بتجدد الزمن النفسي للقراءة والمعاني المتغايرة (لا تظلمون ولا تُظلمون... وإن أول ربا أبدأ به... وإن أول دم أبدأ به...).

ومما يُرسّخ بتكرار الضمائر والروابط وأسماء الإشارة الانسجام الخطابي ولهذا فالإيقاع الجلي والخفي قد تشابكا عموديا وأفقيا لهما توطيدية معنوية ونسيجية بيانية في كمال النص النبوي وثبوتيته.

ومن إيقاعية الخطبة اسمها وعنوانها (حجة الوداع)، ولهذا وردت التكرارات بزخم قصدي غايته التوصيل والإشهاد لما فيها من خواتم الرسالة وزواجرها ومبشراتها ويقينياتها الحقة، وقد ألقيت بمسحة تنبئ عن خطيب قرُب فراقه وارتحاله عن الدنيا !

ومهما يكن فإن حقيقة الاقتدار وإصابة المعنى وإتقان الكلام تصريفاً لا توزن بوجود التكرار أو الإيجاز أو هما معاً، وإنما عمدة الأمر في سَوْق هذين النظامين البيانيين في حال الخطاب ومقامه الزّمكاني وغاية الرسالة المقذوفة فيه «على أنه لا يؤخذ مما قدمنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يطيل الكلام إن رأى وجها للإطالة، فقد كان ربما فعل ذلك إن لم يكن منه بدّ، وقد روى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم خطب بعد العصر فقال: "ألا إن الدنيا خضِرةٌ خلوةٌ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون؛ فاتقوا الدنيا..." قال أبو سعيد: ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حُمرة على أطراف السعف، فقال: "إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى ! ". قلنا: وهذه مدة لا تقدر في عرفنا بأقل من ساعتين، وحسبك بكلام من البلاغة النبوية يستوفيهما، بيد أن الإقلال كان الأعم الأغلب، حتى إنه كان يأمر بقصر الخطبة.» ٢٥.

فبالرغم من طول الخطبة فإن التكرار بانتشاره المتفشي فيها لم يمنع تألق الإيجاز بتلك الجمل القصيرة المحكمة في شد النفس السامعة والقارئة المتلقية، حتى ليبدو من الجملة الواحدة وقد جُمعت جمعاً مكثفا أنها الخطبة ذاتها، وهكذا يتعاضد نسج التكرار بالإيجاز في تناغم معنوي يلون المواقع البيانية التي تحمل المتلقي على الراحة المتملية.

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع خطابه على أساس هو التناسب البياني بوقوع شرط الصحة والمطابقة والتلاؤم بين مضمون الخطاب وزمكانيته ومستوى المتلقي فكريا وشعوريا؛ لهذا فإنه قد يطيل الإطالة الملفتة للانتباه قياساً بحاجة المتلقي لذلك الطول كما ورد في تلك الخطبة عن الدنيا وأحوالها وأهوالها، لأنه أيقن بتلك الحاجة وفحواها ضرورة تنبيه السامعين بفوت الزمن؛ إذ شبه متبقى الدنيا في ذلك القرن بمتبقى يوم الخطبة ذاك، ففيه عظة سانحة واعتبار مستديم بهدف إقناع المتلقين في جمهور الخطبة، بل وكل المتلقين على مدار الزمان وآفاق المكان.

---

[٢٥]- الرافعي ، إعجاز القرآن ص : ٣٠٢ .

ولعل خطبة حجة الوداع شبيهة بهذه الخطبة من جهة الداعي إلى الطول والتفصيل، وهو ضرب من النظام البياني تمليه أزمنة مخصوصة، وليس بالساري في غالب خطبه صلى الله عليه وسلم، ولا شك في أن إدارة الكلام النبوي بينه وبين المتلقي تنسج على منوال النظام البياني في إلقاء الخطاب المعجز.

الخاتمة

وثمة بيانات نبوية أُخَر تتواتر فيها التكرارات كالتعريفات والموازين والرسائل والأمثال النبوية ويجل عددها عن الحصر، وهي خُطَب حقيقة بالدراسة والبحث في جواهرها اللغوية والمعنوية واللسانية...[٢٦]، وتظل المدرسة البيانية المحمدية ذخيرة لا تنفد يجد فيها المبدع و الدارس الأسوة الإبلاغية و القدوة الجمالية الفنية ؛ و قد حباه ربه تعالى بوحي لا ينطق عن الهوى فيه من نور الهدي ما فيه .
من أجل ذلك يحق لهذا البيان أن يُدرس لتُكْتَشف خصائصه الدلالية و البلاغية و التأثيرية ، كأن تفتح مشاريع البحث في ذلك من خلال الأطاريح و الرسائل الجامعية و كذا المخابر المختصة بهذا الشأن ... وقس على ذلك مما يتعلق بتلقي هذا البيان عبر الزمان و المكان .

المصادر و المراجع

١- محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف النووي، الأربعون النورية في الأحاديث الصحيحة النبوية الدار السلفية، الجزائر،
٢- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتب رحاب، الجزائر.
٣ - د.عبد الكريم الرديني، مباحث في تاريخ الحديث ومصطلحه، شركة الشهاب، الجزائر،
٤ - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي، صحيح البخاري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط: ١٤٠١ هـ-١٩٨١م، ج٤،
٥- نسخة دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٦ - السيد أحمد الهاشمي، مختار الأحاديث النبوية والحكم المحمدية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١: ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، (وهو مجموع مرتب بالأبجدية تبرز فيه اللوازم التكرارية خاصة في رؤوس النصوص النبوية كالمعجم).

[٢٦]- ينظرأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تح عماد الدين احمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط٤، (د:ت)، ص ١٤٧-١٥٥، وأنظر: ابن شيق، العمدة، ج٢، ص ٥٨٠.

٧- وللإيجاز لا بأس بذكر بعض جمل ضرب الشرط المتنوعة المختلفة رغم أن اللازمة التكرارية واحدة وهي (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر)؛ علماً أن الموضوعات في جمل جواب الشرط تختلف في خصوصيتها في حين تأتلف في العموم لانها من أبواب الخير والإيمان والعمل الصالح ومن ذلك: (...فلا يؤذ جاره)، صحيح البخاري ج٧،

٨- عز الدين بليق، منهاج الصالحين، دار الفتح، بيروت، لبنان، ط٢: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٩- محمد الغزالي ، فقه السيرة، دار الدعوة ، الاسكندرية، مصر، ط١: ١٤٠٨ه- ١٩٨٨م،

١٠ - الجاحظ، البيان والتبيين، منشورات بيضون ، لبنان ، ج٢،

١١- الزمخشري، الكشاف، دار المعارف ،ج١،

١٢- آمنة بلعلي، الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث (مقال) مجلة التراث العربي، دمشق، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ع٨٩،

١٣- أحمد سيد أحمد، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأسلوب حديثه،

١٤- عز الدين علي السيد، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، مصر، ١٩٧٣م، ص٤٦٣، نقلا عن: أحمد سيد أحمد،
سيرة النبي،

١٥- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تح عماد الدين احمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط٤، (د:ت)، ص ١٤٧-١٥٥، وأنظر: ابن شيق، العمدة، ج٢،

١٦- عبد الرحمان جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ج٢